خاتمة

من داخل المسجد

إنه يوم الخميس، التاسع من كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٤ ... حيث كان المركز الإسلامي بميونيخ شبه خاو ... أما الداخل، فكان ذا وهج إذ أسهمت نوافذ المسجد الكبيرة، وكذا قطع "القاشاني" اللامعة التي تكسو جدرانه في جعل الداخل يبدو دافئا ... إلا أن الحوائط الخرسانية لم تمنع برد أوائل الشتاء من أن يتسرب للداخل.

في ذلك اليوم، كان "أحمد فون دنفر" يذرع أرجاء المسجد الأربعة مرتديا سترة فرائية مقلنسة. إن ذلك الرجل الضخم بلحيته الكثة وأعوامه الخمسة والخمسين لأشبه بجوّال بافارى يجوب غاباتها، لولا جلبابه القصير الذى يظهر من وراء سترته ... ذلك الجلباب الأخضر الذى يمثل الزى الذى اعتمده الرجل معلنا للعالم أنه لم يعتنق الإسلام فحسب، بل كونه منتميا لإحدى جماعاته ... الجماعة الإسلامية الباكستانية.

أما والدا "فون دنفر"، فقد ولدا فى "ريغا" - عاصمة لاتفيا، وهى المدينة ذاتها التى ينتمى إليها أباء "غرهارد فون منده". إن هذا الميناء القديم الذى أنشأه الفرسان والتجار الألمان خلال العصور الوسطي - ليضم أقلية ألمانية كبيرة الحجم، وذلك قبل انشطار ألمانيا فى القرن العشرين حين لم تفقد مساحات شاسعة من أراضيها فحسب، بل فقدت أيضا هيمنتها على أوروبا الشرقية. وحين تم تهجير والدى "فون

دنفر" عند نهاية الحرب الكونية الثانية ... استقر الزوجان في إقليم "الراين" حيث ولد "فون دنفر" في العاشر من أيار/ مايو ١٩٤٩ . هذا، ويعد "أحمد فون دنفر" أنموذجا نمطيا لتلك الفورة في المواليد التي شهدتها ألمانيا في الفترة ما بين عامى ١٩٤٦ و١٩٦٤ ... حيث نشأ في رغد من العيش في "فرانكفورت" - عاصمة المصارف الألمانية لينهى فترة تعليمه المدرسى ويلتحق بالخدمة العسكرية ... وهناك اكتشف الشاب "فون دنفر" الإسلام، حيث يقول: "كان لدى متسع من الوقت أثناء فترة خدمتى بالجيش. فآنذاك، كان على المرء أن يقضى ثمانية عشر شهرا مجندا ... فما كان منى إلا أن عمدت إلى تمضية تلك الأوقات في القراءة، فقرأت كثيرا ... لقد قرأت عن ديانات العالم، حيث كان "الإسلام" - الدين الوحيد الذى وجد قبولا لدى".

وقد شرع "فون دنفر" يمارس "الإسلام" خبط عشواء، لينجذب رويدا إلى "ميونيخ" حيث طفق يزور المركز الإسلامى هناك اعتبارا من أواخر السبعينيات،

وذلك عقيب سنوات قلائل من افتتاحه فى عام ١٩٧٣ . لقد كان ذلك هو الزمن الذى سعت جماعة "الإخوان المسلمين" خلاله إلى العودة مجددا بعد سنوات من القمع والاضطهاد ... حيث بدأت فى إنشاء شبكة علاقات وعمدت إلى ترتيب صفوفها. وبالرغم من أن أبواب المسجد كانت قد أوصدت فى وجه عوام الأتراك المسلمين، إلا أن المسجد قد عمد إلى تعديل لائحته لإتاحة الفرصة أمام المنظمين الإسلامويين المرموقين من أرجاء العالم قاطبة للانضمام إلى مجلس إدارته. وقد شمل ذلك كلا من "خورشيد أحمد"، و"خرم جاه مراد"[١١٩]... وهما اثنان من زعماء الجماعة الإسلامية الباكستانية. يقول "فون دنفر" إن "مراد" هذا قد اضطلع بدور هام فى حياته ... وسرعان ما ارتحل "فون دنفر" إلى إنكلترا للدراسة بالمؤسسة الإسلامية بليستر، تلك التابعة للجماعة الإسلامية، ليرتحل بعدها إلى باكستان لمزيد من التدريب المتقدم ... لقد كان ذلك إبان الجهاد الأفغانى ضد الاتحاد السوفييتى، حيث كانت باكستان – آنذاك – أحد معاقل الإسلام السياسى.

لسنوات ... كان "فون دنفر" ذلك المسلم الألمانى الشاب ضمن نشطاء المسجد السياسيين من العرب والباكستانيين كبار السن ... ومع مرور الأيام، أضحى "فون دنفر" يضطلع بأدوار هامة، إذ عمد إلى تأليف كتب بالإنكليزية والألمانية ... كتب تؤيد "المسلمات" النمطية للإسلام السياسى: تجمعات بعينها تحتضن المسلمين وتدعو إلى تطبيق الشريعة الإسلامية فى البلدان الغربية ودعم حركات الجهاد المسلح أينما يكون المسلمون عرضة لأية أخطار ... لقد أضحى الرجل مسئولا عن المسجد.

إن "فون دنفر" متحمس للحديث عن تاريخ مسجد ميونيخ. وفى أغلب الأحايين، فإن جماع ما يصبو الآخرون إلى معرفته هو الروابط التى تربط المسجد بالتطرف والإرهاب. إن "الرجل" قد أجاب عن العديد من الأسئلة حول "محمود أبو حليمة"، وتفجيرات مركز التجارة العالمى عام ١٩٩٣، ناهيك عن "ممدوح محمود سالم"[١٢٠]

وتنظيم القاعدة ... فضلا عن أية أسئلة أخرى حول تفجيرات الحادى عشر من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١ وتجميد ودائع "غالب همت" وأرصدته المالية، واستقالته من جميع المناصب التى كان يشغلها حينا من الدهر.

لقد وجد "فون دنفر" الأمر أكثر تشويقا وإثارة للحديث عن خمسينيات القرن العشرين ... حيث كان يعلم بشأن الجنود السابقين، إلا أنه قال إنهم قد رحلوا بمحض اختيارهم خلافا لما قيل عن طردهم واستبعادهم. وبغموض متعمد فى الكلام، أقر "فون دنفر" بهدف الطلبة الطموح المتمثل فى الإحياء الإسلامى على امتداد العالم بأسره، وذهب ليقول: "إن للفريقين رؤى متباينة ... فاللاجئون كانوا ذوى توجهات داخلية، فيما كان الطلبة ذوى توجهات عالمية".

كذا، كان "فون دنفر" يعلم بشأن "سعيد رمضان" ... وكان ما قاله عن رمضان – فى الأرجح – صائبا، على الأقل من وجهة نظر جماعة تعمد إلى تجاهل تاريخها وغض الطرف عنه ... وذهب "فون دنفر" يقول: " إذا ما سألت من يأتون هنا لأداء الصلاة عن سعيد رمضان، لألفيت قلة قليلة تعرف اسم الرجل".

أجل ... لقد استبعد "سعيد رمضان" من لجنة بناء مسجد ميونيخ، كذا فقد أقصى عن إحياء جماعة "الإخوان المسلمين"، إلا أنه ظل رمزا أسطوريا فى عالم الإسلام السياسى حتى بعد أن تقاعد فى جنيف، حيث ظل هناك ساعيا إلى الإبقاء على صورته وهالته ... وبين الحين والآخر، كان الرجل مثارا لاحتدام الجدال بشأنه.

فعقب رحيله مباشرة فى منتصف الستينيات، كان رمضان محور محاكمات "الإخوان المسلمين" ... إذ تم الكشف عن محاولة ثانية لاغتيال جمال عبد الناصر، حيث تم الزعم بأن رمضان كان المحرض على تلك المحاولة. أما الشرطة السرية

للنظام الناصرى، فقد أذاعت عن أرتال من الوثائق والأسلحة والأموال لإثبات ضلوعه فى محاولة الاغتيال الفاشلة ... إلا أن ورود تلك الشواهد من نظام شمولى ديكتاتورى قد جعل من الصعب بمكان على المرء أن يحكم بحيدة ونزاهة ... إذ يختلط الزائف بالأصيل، وما من دليل. أما الشرطة السويسرية، فقد قلبّت الرأى مليا عن ماهية "سعيد رمضان" ... لتذهب إلى خلاصة مفادها "كون سعيد رمضان - بالتوازى مع آخرين - عميلا لكل من المملكة المتحدة والولايات المتحدة الأمريكية". وفى تقرير آخر، عمد مسئول سويسرى إلى تذكير السلطات بأن رمضان قد تعاون بإخلاص مع الشرطة السويسرية ... ومن ثم سُمح له بالبقاء فى الأراضى السويسرية.

ولقد كان "سعيد رمضان" - كالعديد من الإخوان المسلمين - مهووسا بالثورة الإسلامية الإيرانية مفتتنا بها ... تلك الثورة التى قادها آية الله الخمينى عام ١٩٧٩ . وبالرغم من كونه "سنيا" - بخلاف الإيرانيين ومذهبهم "الشيعى" - إلا أنه كانت تربطه بطهران علاقات جيدة ... الأمر الذى أفضى إلى تورطه - فى عام ١٩٨٠ - فى جريمة اغتيال الدبلوماسى الإيرانى على أكبر طبطبائى فى العاصمة الأمريكية، واشنطن ... ذلك الدبلوماسى الذى بقي وفيا للشاه المخلوع محمد رضا بهلوى، مما حرض مهووس أمريكى يدعى "داوود صلاح الدين" - كان قد اعتنق الإسلام - على قتله.[١٢١] أعقب ذلك فرار "صلاح الدين" إلى جنيف حيث استطاع "رمضان" أن يهيئ له عودة آمنة إلى العاصمة الإيرانية، طهران، والتى يقيم بها الآن. أما "صلاح الدين"، فقد ذكر لى فى مكالمة هاتفية له من طهران فى الثامن والعشرين من شباط/ فبراير ٢٠٠٦ أن رمضان لم يكن ضالعا فى تلك الجريمة على الإطلاق ... إذا، فقد كان الرجل حريصا على إبعاد أية اتهامات عن صاحبه ... فرمضان وصلاح الدين كانا قد التقيا فى العاصمة الأمريكية، واشنطن، فى عام ١٩٧٥ أثناء إلقاء رمضان لإحدى المحاضرات، ومن يومها ما يزال صلاح

الدين يكن له إجلالا وتوقيرا، إلا أنه اعترف بأن رمضان كان له دور مساعد في أعقاب عملية الاغتيال تلك بالقيام بالتستر عليه وحمايته في جنيف، ثم إجراء الترتيبات الخاصة بعودته ثانية إلى طهران.

وخلال الخمسة عشر عاما الأخيرة من حياته، لم يعد سعيد رمضان رجل المرحلة. أما "الإسلاموية"، فكان نجمها صاعدا ... إلا أن رمضان كان -آنذاك- معتل الصحة. هذا، ويصف الابن "طارق رمضان"، وهو ناشط وداعية إسلامي شهير، أباه بأنه لم يكن يتمكن لسنوات طوال من متابعة الأحداث العالمية إلا عن بعد، إذ كان دائما ما يخلد إلى فترات صمت طويلة يغرق خلالها في ذكريات وأفكار تحوطها غلالة من مرارة وأسى.١٢٢

فماذا عن أولئك الذين أبعدوا عن مسجد ميونيخ؟ في أعقاب وفاة "غرهارد فون منده"، فقدت جماعات اللاجئين الرجل الذي كان يرعاهم ويرفدهم، ولكن ما انفصمت عراهم وما حلت رابطتهم ... أما "ولي قيوم خان"، فقد قاد التركستانيين، إذ أصبح رئيسا للجنة الوحدة القومية التركستانية بألمانيا. كذا، فقد أسس جريدة "مللي تركستان" ببرلين والتي كانت تطبع في الفترة الممتدة من عام ١٩٤٣ وحتى عام ١٩٧٩ . وقد وافت "قيوم" المنية في "دوسلدورف" بألمانيا عام ١٩٩٣ . وأما "باي ميرزا هاييت"، فقد استمر في العمل لصالح ألمانيا الغربية حيث كان موضع هجوم صحيفة "الازفستيا" الروسية في عددها الصادر بتاريخ ١٩٦٨/٩/٢٩ ... هذا، وقد واصل "هاييت" نشاطه الأكاديمي فكتب مصنفا عن ثورة "باسمشي".١٢٣

وهنا يلح سؤال هام: ما الذي كان ليجري إن كان قدر لغرهارد فون منده أن يحيا إلى الآن؟ هل كان لأتباعه أن يعيدوا فرض سيطرتهم على مشروع مسجد ميونيخ؟ ... قد يكون ذلك ممكنا، إلا أنه أمر مشكوك فيه. فخلال سنوات ثلاث

أعقبت وفاة "فون منده"، قام نائبه "فالتر شينك" بإدارة مكتب الخدمات البحثية لأوروبا الشرقية، الذى أصبح فى غير محله وكأنما أضحى خارج الزمن، مجموعة صغيرة من غلاة أنصار الحرب الباردة ينشطون فيما يتجه العالم نحو سياسة "الوفاق". وحين تم إغلاق المكتب نهائيا فى عام ١٩٦٦، لم يستطع "شينك"، الذى كان كفون منده له ارتباطات نازية عميقة، أن يجد عملا مناسبا ... فأخذ يسرف فى الشراب الذى أودى بحياته. أما "فون منده"، فقد سبق "شينك" إلى أجله المحتوم، وكان قد أسرف بالفعل، ليس فى الشراب كنائبه، وإنما فى العمل والتوتر اللذين أوديا بحياته. هذا، ويصعب تخيل أن يكون لمكتب الخدمات البحثية لأوروبا الشرقية أى دور فى مستقبل ألمانيا الإسلامى الجديد.

هذا، وقد استمر "نور الدين نمنقانى" فى الإدارة الدينية للاجئين المسلمين فى ألمانيا ... تلك الجماعة التى تمخضت فأتت بلجنة بناء مسجد ميونيخ ... وفى النهاية، تقاعد الرجل وارتحل إلى تركيا. أما "إبراهيم كوجا أوغلو"، فقد استمر فى مشاحنات وتناوش مع "نمنقانى" طيلة الوقت، حيث كان "كوجا أوغلو" يكتب بين الحين والآخر مخاطبا الحكومة البافارية أو المسئولين الاتحاديين متهما "نمنقانى" بانعدام الكفاءة. وفى طرسوس بجنوب تركيا، قضى "نور الدين نمنقانى" نحبه عام ٢٠٠١، ورغما عن الاختلافات الكبيرة ما بين "كوجا أوغلو"، و"نمنقانى"، إلا أن الرجلين قد لاقا المصير ذاته. فحتى النهاية، لم يتمكن أيا منهما من بناء مسجد لأتباعه، إذ لم يجد الرجلان سوى "الزوايا" الصغيرة التى ألحقت بالمصانع واستؤجرت بثمن زهيد ليؤدى فيها المسلمون صلواتهم ... إذا، فلم يشهد أىٌ منهما مسجد ميونيخ. أما "غريب سلطان"، ذلك الجندى الشاب الذى عمل لحساب "الأوستمنستريوم"، ثم لحساب "الأمكومليب" ... فقد رجع إلى ميونيخ بعد سنوات طويلة من الأعمال الدعائية ومهام "البروباغندا" بالولايات المتحدة الأمريكية. فحين

شرعت "الأمكومليب" في التركيز على البث الإذاعي في منتصف الستينيات، أضحى "سلطان" على رأس "الديسك" التترى، حيث كان يعمل تحت الاسم المستعار "فانيس ايشمباى" .Fanis Ishimbay وقد تقاعد الرجل، وتوفى بمنزله فى ميونيخ فى الرابع عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١١ . كذا، فلم يشهد "سلطان" مسجد ميونيخ. فماذا عن المسلمين فى المستويات القاعدية؟ بقي البعض فى معية "نمنقانى"، فيما فضل البعض معية "كوجا أوغلو". ولكن بمرور السنين، أضحت أعداد أولئك المسلمين أقل مقارنة بعشرات الآلاف من المهاجرين الأتراك الذين وفدوا إلى ميونيخ للعمل فى إطار منظومة الاقتصاد الألماني المزدهر ... حيث اختلف البعض إلى المسجد أثناء الإجازات، فيما امتنع آخرون عن ذلك.

أما "فون دنفر"، فكان قد فرغ من أداء صلاة العصر ... إذ قال متأملا: "إنها قصة المسجد وتاريخه ... أجل إنها قصة هامة، حتى على المستوى الدولى ... أما الآن، فقد أضحى المسجد كيانا محليا ... فالتاريخ، كعادته، لا يتوقف عند حدث أيا ما كان، ومن ثم فقد تجاوز التاريخ مسجد ميونيخ أيضا". وبعد ساعة من جلوس "فون دنفر" بالمسجد، شعر الرجل بالبرد يدب إلى أوصاله ... فالوقت لم يكن قد تجاوز صلاة العصر إلا قليلا، ومع هذا - كانت الشمس وكأنما قد غربت ... فأشبع المسجد بلون يميل إلى ضرب من الحمرة، إنه مغيب شتوى. إن احتمالية معرفة ما حدث بالفعل في ميونيخ لتبدو آخذة فى التراجع ... وكأن ثمة اتفاقا فى التوقيت، شرع "فون دنفر" يفوه في نبرة تعزية ومواساة: "لقد كان الحدث بعد خمسة عشر عاما، أو عشرين تلت الحرب الكونية الثانية ... لقد كان الزمن غير الزمن الذى نحيا فيه الآن. أما الظروف التى انتظمت أمورا وحوادث دارت هاهنا، فيظل من الصعب إدراكها أو تخيلها".